باسمائها الحقيقية ، في جسم الرواية ، بحيث يأخذ العمل بمجمله حالة من الحلم المتنقل بين الواقع والتخيل ، وهي حالة يسيطر عليها رشاد باقتدار مؤكدا حريته في الخلق الفني الذي يلغي التعارض بين شخصيات الواقع والشخصيات الواقعية ٠

بل ربما بدا لنا بعض المفارقة ، في ان شخصية مأخوذة من الواقع (مثل الشرطي عطوة) هي اكثر اقناعا فنيا من شخصية قررها الكاتب (مثل شخصية الاب الياس)، ففي الوقت الذي ينتقل فيه عطوة من صفحات الملحق الى جسم الرواية ليعزز واقعية العمل الفني ، نرى الاب الياس في الرواية مجرد فكرة جاهزة ، فهو قبل ان يظهر يقع تحت طائلة التقرير ٠ يقول محمد احد الاساسيين في الرواية عن الاب الياس : « انه يختلف عن رجال الدين ، فايمانه بالانسان هو جوهر حياته ـ ص ٨٣ » وتقول الام بعد سطر واحد : « لقد واساننا كثيرا ولم يتخلف عنا » ، اما الاب الياس نفسه فبمجرد ان يظهر يقول : « هذه رائحة فلسطين ، رائحة الطابون ، رائحة الطعام الطيب ، رائحة الالفة ، اتعرف يا محمود ، لو انني خيرت ان اكون من وطن من الاوطان لاخترت فلسطين ، لا احد يعرف رائحة القدس القديمة ٠٠ ص ٨٧ » ٠

ان هذا الحوار لا يمكن ان يدور ، فنيا ، بين اناس يعرف بعضهم بعضا ، ان « المعلومات » التي يقدمها هذا الحوار عن الاب الياس هي برسم القارىء ، ويتدخل من الكاتب ، وهذا ما سيبدو اكثر وضوحا بعد ان نقطع في الرواية شوطا ، عندما يقول حسن عن الاب الياس ايضا «ما زال ينتظر عودة المسيح ليخلص العالم ـ ص ٢٠١ » وعندما يتحدث الاب الياس عن نفسه « لا تظن اني لا اؤمن بالعنف ، انا مع حمل السلاح في سبيل تحرير الوطن ـ ص ٢١٨ » ٠٠ في هذه الشخصية فقط ، يستعيض رشاد عن المبادرة الانسانية بالتقرير والمصادرة ، على ان ما يشفع له هو قرب شخصية الاب الياس من القلب ، وانتشارها بين الشخصيات الاخرى ، ذات اللحم والدم ، كاشعاع وجداني يستمد مشروعيته الفنية من خصوصيته اللاهوتية ٠

والاب الياس ، بخصوصيته هذه ، يبتعد عن التناظر المتقن بين مكونات الرواية ، والتناظر الذي اعنيه لا يأخذ شكلا سكونيا او نمطيا ، بل على النقيض ، يبدو غنيا بالحركة ويمنح كل شخصية تفردها الضروري ٠ فنحن نرى اولا شخصية محمود ، الشاب الفلسطيني الذي خرج من السجن حديثا ، انه يواجه النظام بشجاعة ومع ذلك لا يحتمل رؤية ذبح الارنب « بصراحة اكره رؤية الدم ـ ص ٨٥ » وعندما يواسيه اصدقاؤه بان الحبس للرجال ، لا يقع في شرك المزايدة ، بل يلعن السجن وساعته ، وهو يعي فاجعية الوضع الفلسطيني : « فعلا هذه رياح لا تشتهيها السفن ، لقد خلقنا لنعيش ، لنفرح ، لكننا ولدنا على اصوات القذائف ـ ص ٢١٢ » ولهذا فهو يختار الثورة : وهو حريص على ان ينجب الفلسطينيون ويكثروا : « كيف لا ننجب ؟ ذلك يعني اننا لا نستحق ان نكون مواطنين ـ ص ٢٥٤»٠

مقابل هذه الشخصية تماما نرى حسن. على الطريق نفسه ولكن بمواصفات مختلفة ، ففي الوقت الذي يلعن فيه محمود السجن وينزعج من رؤية الارنب المذبوحة ، يطالعنا حسن ، اول ظهوره في الرواية ، بعملية مغامرة ، اذ يقوم بحرق مزرعة المتنفذين واللصوص ، وهو يصل الى نصف الفكرة بينما يكمل محمود النصف الاخر ، مثلا عندما يتحدث حسن عن باسم العارف ، الفلسطيني البرجوازي، يقول : « الذي يحيا في هذا البيت ،وسط